



موضع خطوة

يكون ذا نفع لهم فلن يعدم أن يكفيهم عناء شره بأن يحبسهم عنهم، ومن هذه الخطوة الأولى تتبثق خطواته التالية وفق القاعدة العظيمة «لا ضرر ولا ضرار»^(١). وتتوالى بعدها خطوات هذه المنظومة الأخلاقية المتكاملة والتي لا تتوقف عند مجرد كف الشر عن الآخرين أو عدم إلحاق الضرر بهم، بل هو جزء من هذا المجتمع وهو من ركاب سفينته كما شبهه الرسول الكريم ﷺ في حديثه عن السفينة، وكيف لو أنه ترك لكل واحد منها أن يتصرف دون أن يضع في حساباته وجود الآخرين وتأثير فعله عليهم، لكان في ذلك هلاكه وهلاكهم.

وتتسامى الشخصية المسلمة وهي تتابع خطواتها في مجتمع تسوده الإيجابية ويعوطة التكاتف والتآزر، حتى يرى صاحبه أن من تمام إيمانه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فليس الأمر فقط بأن يأمن الآخرون بوائقه، بل يتعدى الأمر إلى درجة أعلى من الإيجابية، حين يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وهذه وحدها كفيلة ليس فقط بأن تجتاز الحسد والتباغض والحققد، بل وتحل محلها التراحم والتعاطف والتآزر في مجالات النفع.

عملا ذا قيمة قد يتعدى نفعه إلى غيرك، بل قد يعم البشرية. إن كان هذا عن حسن تقدير موضع الخطوة، فأجمل بهذا المنهج الذي يحمل عنك هما تقدر كل خطوات مسيرك، ليتكفل بوضعها في موضعها الصحيح، فمن جميل ما تميزت به التربية الإسلامية وفق تشبثها لفردا أنها لا تسمح للسلبية أن تجد لها طريقا لهذه الشخصية التي أرادت لها أن تكون سوية، بل تجعل فردا مميذا بالإيجابية، ألم تنظر إلى ذلك الصحابي الذي جاء يطلب من النبي ﷺ أن يرسم له مسار معاملاته مع غيره، ولما شرع النبي الكريم يعهد للصحابي ما يجب أن يفعله حيال حقوق الآخرين عليه، والرجل يرد على النبي الكريم: أرايت إن لم أستطع؟ وصل به النبي الكريم ﷺ إلى أن يقول له في النهاية: «أن تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك»^(٢). والمعنى عظيم من أن تحيط به الكلمات حين يبدأ المسلم في الانطلاق بهذا المفهوم وهو يخطو الخطوة الأولى في التعامل مع الآخرين: أن يكف شره عنهم، فإن كانت قصرت به همته وعزيمته أو حتى ظروفه المعيشية أن

لم يكن الشاعر العربي ملما ومحيطا فقط بأهمية التخطيط الصحيح الواعي حين قال:

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها

فمن علا زلقا عن غرة زلقا^(٣)

بل تعدى الأمر ليسبق أساطين التخطيط وعباقره الإدارة وجهابذة التطوير بهذا التركيز والوعي بأهمية التخطيط إلى الدرجة التي جعلته يتخير أين يضع قدمه.

في الحقيقة أحاول أن أصل إلى درجة الوعي بأهمية التخطيط السليم التي ملكت على الشاعر فكره فخرجت منه هذه الكلمات المعدادات والتي تمثل، في نظري، قمة الوعي بأهمية التخطيط.

ليت شعري أين نحن من هذا الفهم ومن هذا الإدراك بأهمية التخطيط ومنا من يقطع مسير حياته وقد قطع العشرات من سنوات عمره، والتي لا نستطيع بحال من الأحوال أن نعدكم خطواتها من الخطوات عبر آلاف الكيلومترات، وقد عاش ومضى ولم يحقق شيئا في حياته.

نعم إن كل خطوة من مسيرة حياتك خطوة ثمينة كان من الممكن ألا تصنع بها شيئا ذا قيمة، ومتى تابعت هذه الخطوات الثمينة أثمرت في النهاية

وترتقي النفس البشرية في ظل هذا المنهج وتنظم خطواتها على درب الصلاح والفلاح حتى تراها يوما بعد يوم تتفوق عن سابقه وتنظم خطواته سلسلة من النجاح ويمر في مسير خطواته بمراحل تقطعها همته وعزمته جراء الخطوة الأولى الصحيحة إلى أحسن. فيها تقدير الموضوع، فما يستوي عنده يومان.. وكيف يستويان؟ وهو يرى ذلك غينا له والغبن قد يأتي من أن خطوات جديدة لم تضاف تقدما في مسير حياته ولم تختلف عن خطواته السابقة.

هذه الخطوات متى استقامت فما تعرف نهاية لمسيرها الخير، ذلك وإن ارتسمت هذه الخطوات على أرض البشر إلا أن قلب صاحبها هناك يسبح في آفاق رحبة من حب العطاء والبذل والبحث بين البشر عما يرضي رب البشر.

قال عبدالله بن بريدة: شتم رجل ابن عباس فقال: «إنك لتشتمني وفي ثلاث خصال: إني لآتي على الآية من كتاب الله فلوددت أن الناس علموا منها مثل الذي أعلم، وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يقضي بالعدل، فأفرح به، ولعلي لا أقاضي إليه أبدا، وإني لأسمع بالغيث يصيب الأرض من أرض المسلمين فأفرح به، وما لي بها من سائمة أبدا»^(١).

إن يأخذ بنا العجب كل مأخذ من جميل قول ابن عباس رضي الله عنهما، إلا أن هذا العجب يزول نعلمنا أن هذه ثمرة من ثمار هذه التربية التي ترباها ابن عباس رضي الله عنهما وفق هذا المنهج العظيم، وقد انتظمت خطواته خلف خطوات النبي ﷺ وهو الذي أردفه مرة خلفه وهو يعلمه بكلمات من نور كلنا يكاد يحفظها عن ظهر قلب، لكن

لم تخالط معانيها العميقة شغاف قلوبنا: إني أعلمك كلمات: «احفظ الله يحفظك...» الحديث^(٢). ويألها من كلمات بها انتظمت الخطوات فكانت مسيرة حبر الأمة. كلما قابل الإمام أحمد بن حنبل ابن الإمام الشافعي، محمد بن محمد بن إدريس الشافعي القاضي، كان يقول له: «أبوك من الستة الذين أَدْعُو لهم كل ليلة وقت السحر»^(٣)، والمعنى كبير لا تعيه إلا النفوس المؤمنة التي انتظمت خطواتها على درب الفلاح فتأخت في بوتقة المحبة.

يروى عن عبدالله بن عمر بن الخطاب أنه كان كثير الاتباع لآثار رسول الله ﷺ حتى إنه لينزل المنازل التي كان ينزل فيها النبي، ويصلي في كل مكان صلى فيه، وتعهده شجرة كان النبي ينزل تحتها بالماء لثلاث تيس. وكان يقول لناقته تهلي لعل الحافر ينزل على الحافر، أي على أثر حافر ناقة رسول الله ﷺ.

إنه فهم وسلوك يعلم صاحبه أن في اقتفاء هذه الخطوات ليس نجاته فقط، ولكن رفقة النبي ﷺ حيث تطيب الرفقة، ولا يمكنك بحال أن تدرك مدى تأثير هذه خطوة التي جعلت رجلا أوروبيا ببلده يستوقف رجلا مسلما توالى رؤيته له، وهو يراه يلتقط ما يعيق سير الناس في الشارع الأوروبي فينحيه جانبا، ولما سألته معجبا بهذا الفعل الحضاري، أجابه المسلم بأن ذلك من تعاليم الإسلام بل إنه يمهدها من خصال وشعب الإيمان وذكر له الحديث المعروف عن شعب الإيمان، وأن أدناها إمالة الأذى عن الطريق. أعجب الأوروبي بهذا، وطلب منه أن يحدثه أكثر عن الإسلام بعدما رأى صورة إيجابية لفرد من معتقيه، والخطوة الطبيعية في هذا السياق المتسق، والخطوات

المتتابعة الصحيحة: كانت نتيجة لأن أسلم هذا الرجل عن فهم واقتناع. والدارج على السنة الناس عندما يدفعون أحدا نحو الاهتمام بأمر ما أن يقال له: لا يد أن تتخذ خطوة إيجابية حيال هذا الأمر. كم كانت نظرة ذلكم العربي نظرة عميقة وفهمه ثاقبا حتى وصل للخطوة ١٩ والخطوة أصل الحياة: بل بدأيتها:

**قدر لرجلك قبل الخطو موضعها
فمن علا رلعا عن غرة رلجا**

الهوامش

- ١- البيت من قصيدة أولها:
ماذا يكلفك الروحات والدلجا
البر طورا وطورا تركب اللججا
للشاعر محمد بن بشير الخارجي ٥٠-
١٣٠ هـ / ٦٧٠ - ٧٤٧ م - شاعر أموي عاش في المدينة المنورة في مكان يسمى الروحاء.
- ٢- البيت في شرح ديوان الحماسة للتبريزي - دار القلم بيروت الجزء الثاني ص ٢٤، والمعنى تأمل موضع قدمك قبل أن تضعها فمن مشى في مكان الزلق على غفلة منه زل.
- ٣- الحديث في صحيح مسلم - كتاب الإيمان.
- ٤- متن الحديث عن أبي سعيد سعد بن سنان الخدري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا ضرر ولا ضرار»، حديث حسن رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما، مسندا، ورواه مالك.
- ٥- حلية الأولياء لابن نعيم.
- ٦- الحديث عن ابن عباس قال كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف». رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.
- ٦- الوافي بالوفيات (١٠٧/١)، السير (٢٢٧/١١).